كتابك

٣٥

عبد السلام هارون

التراث العربى



دار المعارف

كتابك (٣٥)

رئيس التحرير: أنيس منصور

عبد السلام هارون

التراث العربى



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

التراث

لا نجد للتراث مادة معيَّنة فى معاجم اللغة كبيرها وصغيرها ؛ فليس فى اللغة العربية من المواد المبدوءة بالتاء والمختومة بالثاء إلا ثلاث مواد :

١ — الأولى : مادة (تفث) . ومما ورد فيها ما جاء فى القرآن الكريم : «ثم ليقضوا تفثهم» . وقضاء التفث : إذهاب الشعث والدرن ، وهو ما يفعله المحرِمِ إذا أحلّ : كقص الشعر ، وتقليم الأظفار.

٢ — الثانية : مادة (تلث) : وفيها التَّليث بوزن فعيل ، وهو ضرب من نجيل السِّباخ .

٣ — الثالثة : مادة (توث) ، وقد ورد فيها التُّوث : وهو لغة ضعيفة فى التوت ؛ كما ذكر بعض اللغويين .

إذن من أين جاءت كلمة «التراث» ؟

إنَّها مأخوذة من مادة (ورث) التى تدور معانيها حول حصول المتأخر على نصيب مادّى أو معنوىّ ممن سبقه : من والد أو قريب أو مُوصٍ أو نحو ذلك . وفى الكتاب العزيز : «وورث سليمان داود» .

وأجمع اللغويون على أن التراث ما يخلّفه الرجل لورثته ، وأن تاءه

أصلها الواو : أى (الوُراث) . وله نظائر فى كلمات أخرى منها التُّجاه ، أصلها الوُجاه : أى الجهة .

ومنها : التُّخَمة : الأزمة الناشئة عن ثقل الطعام . (الوُخَمة) .

ومنها : التُّهَمة : وهو توهّم الإنسان أن أخاه قد أساء أو تجاوز حدًّا من الحدود ، وأصلها (الوُهَمة) .

وكذلك : التُّكْلان ، أصلها (الوُكْلان) : أى الاعتماد على وكيل .

وتَتْرى ، أصلها (وَتْرَى) من المواترة .

ومن هذه النظائر أيضاً : التُّقَى ، أصلها (الوُقى) .

وهكذا يدور قلب الواو المتصدرة لهذه الكلمات تاء ؛ لأنها أجلد من الواو وأقوى ، ولا تتغير بتغيُّر أحوال ما قبلها كما يقولون .

تاريخ الكلمة :

لعل من أقدم النصوص التى وردت فيها هذه الكلمة ما جاء فى القرآن الكريم من سورة الفجر : «وتأكلون التراث أكلاً لمًّا» : كانوا فى جاهليتهم يمنعون توريث النساء وصغار الأولاد ، فيأكلون نصيبهم ويقولون : لا يأكل الميراث إلا من يقاتل ، ويحمى حوزة القوم ، وكانوا يلمّون جميع ما تركه الميت من حلال أو حرام ويسرفون فى إنفاقه .

ومما ورد فى الشعر القديم قول سعد بن ناشب ، وهو شاعر إسلامى كان بلال بن أبى بردة قد هدم داره ؛ لأنه أصاب دماً فى قوم :

فإن تَهدموا بالغدر دارى فإنَّها
تراثُ كريمٍ لا يُبالى العواقبا !

وظلت كلمة « التراث » محدودة الاستعمال تنوب عنها أختها « الميراث » فى كثير من الأمر إلى أن أطلّ علينا هذا العصر الحديث ، فوجدنا هذه الكلمة تشيع بشيوع البحث عن الماضى : ماضى التاريخ ، وماضى الحضارة ، والفنّ والآداب ، والعلم ، والقصص ، وكل ما يمت إلى القديم .

المعنى المعاصر :

والذى يعنينا فى هذا الذى قصدنا له هو التراث الفكرى المتمثل فى الآثار المكتوبة الموروثة التى حفظها التاريخ كاملة أو مبتورة ، فوصلت إلينا بأشخاصها .

وليست هناك حدود معيّنة لتاريخ أى تراث كان ؛ فكل ما خلفه مؤلف من إنتاج فكرى بعد حياته طالت تلك الحياة ، أو قصرت — يعد تراثاً فكريًّا .

ولقد أصبح شعر البارودى وشوقى وحافظ ، وحديث عيسى بن هشام ، وآثار المنفلوطى والمازنى والعقاد — تراثاً له حرمته التاريخية ، وله مقداره الأثرى .

التراث العربى

والتراث العربى يتناول كل ما كتب باللغة العربية ، وانتزع من روحها وتيارها قدراً بصرف النظر عن جنس كاتبه ، أو دينه ، أو مذهبه ؛ فإن الإسلام قد جَبَّ هذا التقسيم وقطعه فى جميع الشعوب القديمة التى فتحها ، وأشاع الإسلام لغة الدين فيها ، وهى اللغة العربية التى لوّنت تلك الشعوب بلون فكرى واحد متعدد الأطياف ، هو الفكر الإسلامى ، وهو الفكر العربى .

تقويم التراث العربى :

ولعل من نافلة القول والتزيد فيه أن نسهب فى بيان قيمة هذا التراث ؛ فلقد سبقنا العلماء الأوربيون إلى الاعتراف بهذا الفضل ، واستولى عليهم الدهش إزاء ظهورهم على ما صنع أسلافنا فى مختلف زوايا العلم والمعرفة ؛ فالتراث العربى غنى فى الكيفية ، غنى فى الكمية أيضاً ، ولا تزال آثار هؤلاء الأسلاف – فى التشريع والعلوم الفلسفية والرياضية والجغرافية والطبية والفنية وغيرها – معدودة فى قمة الإنتاج الفكرى ، ولا تزال النظريات الفلسفية والاجتماعية لعلماء العرب وفلاسفتهم أصلاً وجذراً من جذور علم الاجتماع والفلسفة المعاصرة .

وأذكر أنى كنت فى مجلس ضم طائفة من المشتغلين بالفلسفة فانبرى أحد الأساتذة ليقول : إن أحدث البحوث الفلسفية الآن أصبح يستخدم الرموز الحرفية فى حل مشاكل الفلسفة ، وإن مسائل الفلسفة الآن أضحت شبيهة بمسائل الجبر والمعادلات الرياضية ! فقلت له : إن أسلافنا العرب قد سبقوا فلاسفتنا المعاصرين فى هذا الاتجاه الذى نوهت به .

وذكرت له أنى قمت بنشر رسالة للرئيس ابن سينا عنوانها « الرسالة النوروزية » تكلم ابن سينا فيها على فلسفة الوجود مستخدماً حروف الهجاء : (اب ج د هـ و ز ح ط ى ك ل م ن س ع ف ص ق ر) فى معادلات رياضية ينتهى بكل منها إلى أحكام فلسفية خاصة . وهذه الرسالة ضمن سلسلة نوادر المخطوطات التى قمت بنشرها سنة ١٩٥٤ . فأخذت الدهشة صاحبى من السبق الفنى العجيب لأسلافنا العرب :

أولئك آبـــائى . فجئنى بمثلهم
إذا جمعتنـا يا جرير المجامع !

وإن فى التراث العربى كثيراً من المعجزات الفريدة التى لم تتكرر فى عالم التأليف إلى الآن .

فكتاب « مقاييس اللغة » لابن فارس يعد فريداً فى بابه ، إذ إن ابن فارس استطاع أن يبتدع نظرية لغوية دقيقة تتمثل فى إرجاع كل مادة لغوية من مواد المعاجم إلى أصل أو أصلين أو عدة أصول معنوية . وقد يكون فى المادة الواحدة مئات من الكلمات ، مثل مادة (ربع) ، وتفسر

كل كلمة منها بتفسير خاص يخاله القارىء المطلع أشتاتاً مختلفة ، ولكن ابن فارس استطاع بحذقه أن يردّها إلى ثلاثة أصول ، وهى : الجزء من أربعة أشياء ، والإقامة ، والإشالة والرفع . على حين نجد ابن منظور فى لسان العرب يتناول مفردات هذه المادة ومشتقاتها فى خمس عشرة صفحة كبيرة ، يخيل للباحث فيها أن هناك مئات من الدلالات لمئات من الألفاظ .

وقد قام ابن فارس بتطبيق تلك الفكرة على جمهور المواد اللغوية العربية ، فاستقام له ذلك . ولم نسمع إلى الآن بمن قام بمثل هذا المجهود التأليفى فى أى لغة من لغات العالم كانت ، فى قديمها وفى الحديث .

كما تعدّ «مقدمة ابن خلدون» لكتابه فى التاريخ كنزاً من كنوز التفكير الاجتماعى سيظل أصلاً للفلسفة الاجتماعية ، وسيظل مرجعاً للدارسين مهما طالت الأزمان وكرت الدهور .

وكذلك المجهود الفريد الذى قام به الزمخشرى فى معجمه «أساس البلاغة» الذى استطاع فيه أن يفرد الألفاظ والأساليب المجازية ، وينظر إليها بعين مبصرة . ولقد حالفه التوفيق ، واستتب له النجاح فى جميع خطواته .

ونستطيع أيضاً أن نعد تراث أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى قمة التأليف فى المعارف العامة ، أو أن نقول : هو الذى فتح الباب لمن جاء من بعده من العرب وغيرهم حتى أمكن المؤلفين فى عصورنا الحديثة أن

يؤلفوا ما يسمى بدائرة المعارف : Encyclopedia

. ويستطيع الأديب العربى أن يكتفى بقراءة كتبه ليحصل على اللبنات القوية التى تشيد له صرحاً فكرياً وبيانياً عالياً ، وتمنحه قوة واقتداراً على البيان والنقد والتصرف فى فنون القول .

فنون التأليف العربى :

- ويكفى أن تقلب طرفك فى أثناء كتاب «كشف الظنون» لحاجى خليفة ، لتقرأ أسماء نحو مائتى علم أو فن ، كعلم آداب البحث والمناظرة ، والاختلاج ، والأسطرلاب ، والأكر ، والآلات الحربية ، والآلات الرصدية ، وآلات الساعة ، والآلات الظلية ، وعلم انبساط المياه ، وعلم الأوزان والمقادير ، والباه ، والبرد ومسافاتها ، والبنكامات ، والبيزرة ، والبيطرة ، وتحسين الحروف ، وتدبير المدينة ، وتدبير المنزل ، وترتيب العسكر ، وتركيب المداد ، والتصوف ، وتعبير الرؤيا ، والجبر والمقابلة ، والجراحة ، وجر الأثقال ، والجغرافيا ، والجفر ، والجهاد ، والحروف والأسماء ، والحكمة ، والحيل الساسانية ، والرصد ، والرمل ، والرمى ، والرياضة ، والريافة ، والزيج ، والزايرجة ، والسياسة ، والسيمياء والشروط والسجلات ، والصيدلة ، والطبخ ، والطلسمات ، والطيرة ، والعدد ، وعقود الأبنية ، والفتاوى ، والفراشة ، والفلاحة ، والفلقطيرات ، والقرانات ، والقرعة ، وقلع الآثار ، وقوانين الكتابة ،

وقَود العساكر والجيوش ، والكحالة ، وكشف الدك ، والكهانة ، والكيمياء ، ومراكز الأثقال . والمرايا المحرقة . والمساحة ، والمعادن ، والمعمى ، والملاحة ، والملاحم . والموسيقى ، والميقات ، والنبات ، ونزول الغيث ، والنيرنجات ، والوصايا ، والوضع ، والهندسة ، والهيئة . . . إلى كثير جداً مما أغفلت ذكره .

هذه بعض أسماء علومهم ، وهى قلّ من كثر كما يقولون ، ومن الإطالة غير المقبولة هنا أن نفسر مدلول هذه العناوين ؛ فإن حاجى خليفة قد تكفل فى كتابه الخالد «كشف الظنون» بتوضيح تلك المدلولات وتقديم دراسات موجزة عنها .

وفى المكتبات العامة فى العالم ، وهى تناهز ألفاً وخمسمائة على ما أحصاه الفيكونت فيليب دى طرازى فى كتابه المسمى «خزائن الكتب العربية فى الخافقين» .

أقول : فى تلك المكتبات البالغة هذا العدد (١) آثار خالدة خلود

---

(١) ذكر أن منها فى مصر ١٦ مكتبة ، وفى الجزائر ٨ ، وفى فلسطين ٦ ، ولبنان ٣ ، وسوريا والعراق والحجاز واليمن ١٥ ، والمغرب الأقصى ١٠ ، وتونس ٧ ، والولايات المتحدة ٢٨٥ ، وألمانيا والنمسا ١٤٥ ، والاتحاد السوفييتى ١٢٠ ، وبريطانيا ٧٦ ، وفرنسا ٦٧ ، وإيطاليا ٤٨ ، وسويسرا ٢١ ، وهولاندة ١٥ ، وبلجيكا ١٣ ، واليابان ٩ ، والدانمرك ٦ ، واليونان ٢ ، والهند ٣ ، وإيران ٣ . وفى هذه المكتبات نحو ٢٦٢ مجلداً .

وهذا الإحصاء المكتبى والكتبى إنما يرجع إلى سنة ١٩٤٨ وهو تاريخ طبع كتابه . ومن البديهى أنه تعرض بعد هذا التاريخ لزيادة كبيرة تحتاج إلى متابعة .

الأهرام ، وهى جديرة حقاً بأن يتعاقب المحققون على تمهيد السبل للانتفاع بها والاستمداد منها .

إن مؤرخى العلوم يعزون إلى أسلافنا العرب ابتكارات فى مجالات الهندسة والطب والحساب والجبر والمقابلة والبصريات ، بل فى مجال التشريع والاجتماع وفلسفة التاريخ والنقد الأدبى :

فنى الهندسة نجد محمد بن جابر البتانى (٣١٧) ، وأبا الوفاء البوزجانى (٣٨٨) يتبنّيان طرقاً قديمة أو مبتكرة لحساب المثلثات من بين فروع الهندسة ؛ حتى إذا جاء نصير الدين الطوسى (٦٧٢) كان أول من جعل من حساب المثلثات علماً خاصاً منظماً . فإلى العرب يرجع الفضل فى وضع هذا العلم المستقل الذى كانوا يسمونه أحياناً «علم الأنساب» لقيامه فى معظم الأمر على النسبة بين أضلاع المثلث .

وفى الطب نجد أبا بكر الرازى (٣٢١) صاحب كتاب «الحاوى» و «المنصورى» ، وهو أول من استخدم «فتيلة الجرح» التى لا تزال مستعملة إلى الآن ، وهو الذى ابتدع صنع الخيوط الجراحية من مصارين الحيوان ، وأول من استخدم الرصاص الأبيض فى المراهم .

وأعظم أطباء الإسلام الرئيس أبو على الحسن بن عبد الله بن سينا (٤٢٨) صاحب كتاب «القانون» الذى لا يزال إلى اليوم من أهم مراجع الطب والعلاج ، وهو الذى ذكر أن السبيل الوحيد للشفاء من الأورام الخبيثة ، (السرطان) إنما هو الجراحة المبكرة فى الأدوار الأولى للمرض ،

وأن الاستئصال يجب أن يكون على نطاق واسع وعمق كبير ، مع العناية الشديدة بتعقيم المنطقة الباقية بعد الاستئصال .

كما يذكرون أن ابن النفيس على بن أبى الحزم القَرْشى[1] (٦٩٨) صاحب كتاب «الموجز» ، وهو مختصر قانون ابن سينا – كان أول من اكتشف الدورة الجزئية للدم بين القلب والرئتين .

وللعرب مفخرة عريضة فى وضع علم الجبر والمقابلة ، وينتمى وضع هذا العلم إلى العالم الكبير محمد بن موسى الخوارزمى (٢٣٢) ؛ فهو الذى ابتدعه وسمّاه ، ووضع مصطلحاته ، ولا يزال هذا الاسم العربى مسيطراً على جميع لغات العالم Algebra, Algèbre كالإنجليزية والفرنسية والألمانية .

وأما علم البصريات فنجد أبا على الحسن بن الحسن بن الهيثم البصرى (٤٣٢) يبتدع نظريات الضوء ، ويضع فى ذلك كتاب «المناظر» الذى يعد الدعامة الأولى فى بناء هذا العلم ، وقد شرح فيه انكسار الضوء ، وبين كيف تتم رؤية الأشياء ، وهو سبق علمى خطير .

ونجد كذلك سبق العرب فى موسوعات الفقه الإسلامية كمبسوط السرخسى ومدونة مالك ، وكتب الفتاوى .

---

(١) أصله من بلدة «قرش» بفتح القاف ، بلدة فيما وراء النهر . وقد ولد فى دمشق ثم سكن مصر وأقام بها إلى أن توفى .

الإيمان بالتراث

كما أن الوطن هو المهد الأول لجسم الإنسان ، يحنُّ إليه كلما بعد به المطاف فى بلاد الله ، ويشعر فى قرارة نفسه بحبه وتفديته ، والاستهانة ببذل المال والنفس فى سبيل الحفاظ عليه ، ويدين له أبداً بالولاء والإعزاز مهما أغرته المغريات ، وباعدت بينه وبين أرضه ضرورات العيش ، كذلك يعد التراث الفكرى هو المهد الأول لتفكيره ولنفسه . وأى انفكاك بين المرء ووطنه ، أو بين المرء وتراثه — يخلق منه امرأً تتجاذبه أطراف الضياع وفقدان النفس . وضياع النفس مدعاة إلى التفكك والتخلخل ، والشعور بالبؤس والمذلة اللتين لا تطيب معهما الحياة .

وإذا ذهبت فى المقابلة بين جيلنا الذى نشأنا فيه وبين هذا الجيل الذى يعيشه أبناؤنا — وجدنا الفرق شاسعاً بين شعورنا بكياننا العزيز الوثيق ، وكيان بعض أبنائنا الذين انفصلوا عن المتعة بالتراث العربى متمثلاً فى ضروبه المختلفة :

فهناك التراث الدينى فى كتبه التى كانت ميسرة لنا ، وكانت موضع اهتمامنا ؛ والتراث الأدبى واللغوى الذى كان لكل منّا قدر وافر من الاطلاع عليه وتمثُّله حفظاً أو قراءة أو رواية . وكذلك التراث التاريخى

الذى كنا نملأ به المجالس مذاكرة ومساجلة ، والتراث القصصى متمثلاً فى قصص عنترة بن شداد ، وألف ليلة وليلة ، وإعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس للإتليدى ونحوها . هذا بالإضافة إلى دواوين فحول الشعراء كأبى تمام والبحترى والمتنبى وأبى العلاء ، والقصائد المعلقات .

ولم يكن فى جيلنا من لا يحفظ للحريرى أكثر من مقامة ، ثم ينظر من بعد ذلك فى كامل المبرد وأمالى القالى ، وفى العقد الفريد وأغانى أبى الفرج . وكانت الكتب المدرسية حافلة بعيون التراث نستظهر منها جياد النصوص وحسان الخطب ، وكان بعضنا يحفظ ديوان شعر بأكمله ، أو يستظهر جمهوره .

كيف نستعيد هذا الإيمان ؟

وإنى لأعتقد أن هذه النكسة التى يحياها أبناؤنا اليوم هى فى سبيل الانقشاع بفضل الجهود المكثفة التى يتضافر عليها العلماء المحققون الغُيُر الذين يتنادون فى مختلف أصقاع العالم العربى ، ويتكاتفون على إحياء تراثنا العربى لتقديمه إلى ناشئة اليوم وشيوخ الأمس .

إن لنا لماضياً رائعاً ، حافلاً بألوان جميلة حقًّا من فنون الأدب وضروبه ، وهو ماضٍ جدير بأن نفخر به ونعتز ، وأن نجيل النظر فيه ، فنظفر بالممتع العجيب !

إنه لم يتح للكثير منّا اليوم أن يتصلوا بهذا الأدب العربى القديم اتصالاً صالحاً . يفتح أعينهم على ما فيه من خير وما فيه من عجب : فهذه الاضطرابات السياسية ، وهذه الفوضى الفكرية التى ضربت أطنابها فى أرجاء الأمة العربية ، وباعدت بيننا وبين موارد الأدب العربى القديم — جعلت أبناءنا ينظرون إلى هذا اللون الثقافى نظرتهم إلى شىء غريب عنهم .

إننى أعنى بالأدب العربى القديم ، ذلك الإنتاج الخصب الذى يبدأ من عهود الجاهلية ، ثم يترامى إلى آفاق القرن الرابع أو الخامس الهجرى ؛ فإن ذلك العهد الإسلامى يمت بسبب وثيق إلى عهد الجاهلية ، ويحذو حذوه فى كثير من الأمر ، ويستمّد أكثر ما يستمد من معينه ، وفيه حافظ الأدباء إلى حد ما على سلامة اللغة وسلامة الذوق العربى الذى ينسجم مع هذه اللغة انسجاماً ، ويلتئم بها التئاما .

ولقد نقلت إلينا أمهات الكتب ذلك الأدب فى صدق وأمانة ، وساقت إلينا روائع كثيرة ، ولكنا نغمض أعيننا دونها ؛ لأننا نجد فيها الصعوبة ، ولا نجد اليسر واللين اللذين يجذباننا إلى قراءة الأدب المعاصر !

إن هذه الصعوبة ترجع إلى أمور شتى :

منها غرابة هذه اللغة التى تحتاج إلى ترجمان يفتح مغلقها ويجلو وجهها .

ومنها ما قد يظهر من إخفاق هذه المؤلفات فى طريقة العرض ، وعدم مسايرتها للأساليب الحديثة المؤسسة على جانب كبير من مقتضيات علم النفس ومناهج الترغيب .

ومن أسباب ذلك أيضاً تلك الجناية التاريخية التى يجنيها الناسخون والطابعون ، فيشوهون معالم هذا التراث ، ويزيدونه عسراً فوق عسر .

ومن علل هذه الصعوبة أيضاً بُعد العهد بملابسات تلك الوقائع الأدبية وظروفها وأجوائها . وبدون معرفة هذه الظروف والأجواء قد يخفق القارئ فى فهم تلك النصوص ، ويقع فى لج من الحيرة والارتياب .

ومما حمل النشء أيضاً على هذا الرفض – ضعف الدعوة إلى هذا الأدب الرفيع فى الوقت الذى ظهرت فيه دعاوة مغرضة متعمدة ، تقصد إلى توهين شأنه وتحقيره ورميه بالضعف ؛ كما رميت لغته من جانب آخر بعجزها عن مطاوعة ما تقتضيه الحياة المعاصرة . وقام بهذه الدعوة بعض ضعاف النفوس الذين يودون أن لو زالت هذه اللغة ، وضاع أدبها ، وامّحت ثقافتها فى لمحة الطرف أو غمضة العين ؛ إذ قالوا : إن الأدب العربى أدب ناقص ينقصه الكثير من مقومات الآداب !

أما صعوبة اللغة فليست ترجع إلى طبيعة اللغة ، وإنما ترجع إلى أمرين رئيسيين :

أما أحدهما فهذه اللغات العامية التى تثير الاضطراب فيمن يقبل على تعلم العربية ، فتأخذه إلى هوة من الشك ما يدرى : أعربى ذلك اللفظ أم

دخيل؟ وما يدرى أيضاً : أعربى هذا الأسلوب أم أعجمى ؟ ثم هو يجد نفسه فى عالم غريب من دنيا الألفاظ ! لأنه لا يتكلم فى بيته أو فى معهده أو فى ناديه إلا لغة عامية شتان ما بينها وبين فصيح اللغات !

وأما الآخر فهو هذا الداء العضال ، هو المدرسة : فهذه الأداة التى كان يظن بها أن تكون عاملاً على إنهاض اللغة وإقالتها من عثرتها — أصبحت هى حجر العثرة فى طريق نهضة اللغة ، لا بأساتذتها ومعلميها الذين لا يزالون يرتضخون لكنة عامية فحسب ، بل بقصور مناهجها وارتباك أساليبها فى تعليم هذه اللغة ؛ لأنا لم نصنع تلك المناهج بأيدينا فى بادئ الأمر ، بل ساقها إلينا الدخيل فى لفافة من السياسة الاستعمارية ، ثم كف يده ، وظللنا نحن لا نكف عن السير فى ذلك التيار الذى دُفعنا إليه دفعاً .

وهذا هو السر فى إخفاق كثير من الطلاب الذين اكتفوا بجهد المدرسة الضئيل ، فحرموا أنفسهم المتاع الطيب بهذا الأدب ، على حين نجد من درسوا بأنفسهم وكان لهم ميل خاص ومجهود شخصى — قد فازوا بهذه المتعة ، ونجحوا نجاحاً ظاهراً ؛ لأنهم لم يتقيدوا بالقيد المدرسى ، فاتسعت أمامهم آفاق المعرفة واحداً بعد الآخر . والعلم وَلود كما يقولون !

وحين تتخلص اللغة العربية من هذه القيود ، وتختص اللغة العربية بالعناية الواجبة — حينئذ نمتلك لغتنا امتلاكاً خالصاً ، ونشعر باستقلالنا

الروحى الثقافى ، الذى هو أعلى مقاماً وأعزّ شأناً من سائر مظاهر الاستقلال .

دفاع عن التراث الأدبى الأصيل :

إن النظرة الشعوبية التى توجه إلى الأدب القديم ، وادعاء أنه أدب استجداء ، وأنه أدب سطحى ، وأن مراجعه قد أخفقت فى عرض ما بها من آثار أدبية ، وأنها لا تلتزم نظم التأليف ، وأن بها إطالة غير مجدية حين تذكر الأسناد أو تعيد الخبر وتكرره بروايات متعددة — إن تلك الادعاءات الباطلة التى قام بها أمثال سلامة موسى وحوارييه لن تصنع شيئاً فى هذا الطود الشامخ . وفى الحق أن فى النصوص القديمة أدب استجداء ، ولا يزال هذا النّهج ظاهراً أمام أعيننا فى الأدب الحديث عربيًّا كان أو غير عربى ، ولكن الحكم بالتعميم حكم ظالم ، فإننا نجد فى الأدب القديم والشعر القديم مواقف نموذجية للكرامة والاستعلاء ، بالإضافة إلى المواقف العادلة المتزنة .

وقد هجا الشعراء فى الجاهلية عمرو بن هند هجاء مقذعاً لم يعبئوا بملكه وسلطانه : نجد صورة جريئة منه فى شعر طرفة بن العبد إذ يقول :

فليت لنا مكانَ المَلْكِ عمروٍ رَغوثاً حول قُبَّتنا تدورُ[١]
من الزَّمِرات أسبلَ قادِماها وضَرَّتها مركَّنة دَرور[٢]

(١) الرغوث : النعجة المرضع . (٢) الزمرات : القليلات الصوف .

ونرى عمرو بن كلثوم يستعلى عليه ، ويتجاهل سلطانه وسطوته ويخاطبه فى شموخ :

تهدَّدْنا وأوعدنا رويداً متى كنا لأمك مقتوينا ؟
فإنَّ قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا

ونجد المتنبى يوجه السخرية والهجاء إلى كافور الإخشيدى ، وينظر إليه من الأعلى فيقول :

أكلَّما اغتال عبد السَّوء سيدهُ أو خانه فله فى مصر تمهيدُ
صار الخصىّ إمامَ الآبقين بها فالحرُّ مستعَبدٌ والعبد معبودُ
نامت نواطيرُ مصرٍ عن ثعالبها فقد بشِمْنَ وما تَفنَى العناقيدُ
العبد ليس لحرٍّ صالح بأخ لو أنّه فى ثياب الحرِّ مولودُ
لا تشترِ العبدَ إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

ويقول :

وتعجبنى رجلاك فى النعل ، إننى
رأيتك ذا نعلٍ وإن كنتَ حافيا
وإنَّك لا تدرى ألونُك أسودٌ
من الجهل ، أم قد صار أبيض صافيا ؟
ومثلُك يؤتى من بلادٍ بعيدة
ليضحكَ ربّاتِ الحداد البواكيا !

بل أُلفت كتب خاصة فى مثالب الوزراء . وقد صنع أبو حيان كتاب

«مثالب الوزيرين» – الصاحب بن عباد ، وابن العميد – فلم يدع لهما كما يقولون أديماً صحيحاً . وكتابه هذا مطبوع متداول [1].

وإذا سلمنا بأن شعر المدح قد يحتمل الرياء والنفاق والتذلل – أفليس هناك شعر للفخر ، وشعر فى الغزل والتشبيب وشعر فى الوصف ، وآخر فى المراثى والتعازى وكل أبواب المعانى التى لم يدع الشعراء منها شاردة أو واردة ، أليس فى ذلك كله آيات فى الروعة والسمو وعجيب البيان . وإن بيتاً واحداً من أبيات المتنبي أو أبى العلاء لأعلى كعبا وأسمى شأناً من أمثال هذه الكتب الشعوبية المغرضة !

وأما ادعاء السطحية فباطل كذلك : فإن ما تَعجّ به الآثار الأدبية القديمة من حكم وأمثال سائرة ، ومن عمق المعانى ودقة الأفكار – مالا يحوج المدافع إلا أن يمسك بأصابع المدعى ليضعها فوق النصوص العميقة متتالية متوالية :

وما كلُّ ذى لُبٍ بمؤتيكَ نُصْحَه ... وما كلُّ مؤتٍ نصحه بلبيبِ

والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنعُ

فاستقدِرِ الله خيراً وارضَينَّ به ... فبينما العسرُ إذ دارت مياسيرُ

ستُبدى لك الأيامُ ماكنتَ جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار مَن لم تزوِّد

اعِمدْ إلى الحقِّ فيما أنت فاعلُه ... إنَّ التخلُّق يأتى دونه الخلقُ

(١) بتحقيق إبراهيم الكيلانى . طبع دار الفكر بدمشق .

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يُدركُه   والعيش شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

وعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلة   ولكنَّ عينَ السُّخط تبدى المساويا

أرى بصرى قد رابَنى بعد صحّة   وحسبُك داءً أن تصحَّ وتسلما

وإنّ ضيَّع الإخوانُ سرًّا فإننى   كَتومٌ لأسرارِ العشير أمينُ

يكون له عندى إذا ما ائتمنته   مكانٌ بسوداء الفؤادِ مكينُ

فإذا استودَعْتَ سرًّا أحداً   فقد استودعتَ بالسرِّ دمَك

أبكى الذين أذاقُونى مودتَهم   حتَّى إذا أيقظونى فى الهوى رَقَدوا

أجارتَنا إنا غريبان هاهنا   وكلُّ غريبٍ للغريب نسيبُ

وإنَّما أولادُنــا بيننــا   أكبادُنا تمشى على الأرضِ

قومى هُم قتلوا ، أُميم ، أخى   فإذا رَميتُ يُصيبنى سهمى !

فتضاحكنَ وقد قلن لها   حسنٌ فى كلِّ عينٍ مَن تَودّ

وإنّ صخراً لتأتم الهُداةُ به   كأنه علمٌ فى رأسه نار

لا تَعجبى يا سَلم من رجلٍ   ضحك المشيبُ برأسِه فبكى

ستَقربُ الدارُ شوقاً وهى نازحة   من فاتَه العينُ لم يستبعد الأثَرا

وأما أنّ مراجعه قد أخفقت فى عرض ما بها من آثار أدبية فقول

باطل . وسيقول بعضهم : إنى لأستفتح كتاباً من كتب الأدب العربى فيقفز فى عينى : «حدثنا فلانٌ عن فلان أن فلاناً حدثه بكذا وكذا» وإذا «كذا وكذا» هذه كلمتان أو ثلاث لا تسمن ولا تغنى من جوع ، فما هذا الضرب من التأليف الذى يعمد إلى الإطالة وإلى إضاعة وقت القارئ ؟

فنقول له : إن هذا السند الذى يجعله المؤلف فى صدور أخباره هو الوثيقة التى يعتمد عليها فى تحقيق ذاك الخبر أو تلك الرواية . وهذا أمر له وزنه وقيمته عند المحققين ، ولا عليك أن تغض الطرف عنه حيناً وألا ترجع إليه إلا إذا كنت من أهل التحقيق .

وسيقول بعضهم : إنى لأقرأ فى كتاب من تلك ، فأراه لا يتحدث فى موضوع خاص أو قضية معينة ؛ وإنما يتنقل فيه المؤلف من معنى إلى ثان ، ثم يطفر إلى ثالث لا يربطه بالأول ولا بالثانى إلا رباط هين يسير !

فنقول له : إن هذا أسلوب فنى يستروح به القارئ ، ويتنقل به كما تتنقل النحلة فى أزهارها ترشف رحيق هذه لتنال من رحيق تلك ، وهو أسلوب نفسى تعالج به السآمة والملل ، ويجتذب به نشاط القارئ بما يعرض به من مختلف الصور.

ولعل زعيم هذا الأسلوب من التأليف هو صاحبنا الجاحظ ، الكاتب المرح ، الذى لا يترك القارئ دون أن يزوده ببعض الطرف والنوادر مهما يكن نوع الحديث الذى يسوق فيه القول . وفى ذلك

يقول[١]:

وإن كنا قد أمللناك بالجد وبالاحتجاجات الصحيحة والمروّجة ، لتكثّر الخواطر ، وتُشحَذ العقول – فإنا سننشطك ببعض البَطالات ، وبذكر العلل الظريفة ، والاحتجاجات الغريبة . فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه ، من السرور والضحك والاستطراف – مالا يبلغه أحر النوادر وأجمع المعانى .

وأنا أستظرف أمرين استظرافاً شديداً : أحدهما استماع حديث الأعراب ، والأمر الآخر احتجاج متنازعين فى الكلام وهما لا يحسنان منه شيئاً ؛ فإنهما يثيران من غريب الطِّيب ما يضحك كل ثكلانَ وإن تشدّد ، وكلَّ غضبانَ وإن أحرقه لهيب الغضب !

عبقرية التأليف العربى :

على أننا كذلك نلقى نماذج أخرى من جياد الكتب محكمةً فى التأليف رائعة فى نظامه ، نجدها فى كتب الثعالبى ، ومؤلفات ابن قتيبة ككتاب المعارف ، وكتاب المعانى الكبير ، وعيون الأخبار ، ومنها كتاب نهاية الأرب للنويرى ، وصبح الأعشى للقلقشندى ، ومحاضرات الراغب الأصفهانى .

كما نجد كتب تفسير القرآن الكريم لكل منها منهج خاص يرضى

(١) الحيوان ٣ : ٧ .

مختلف الأذهان والأذواق :

فمنها ما يهتم بالرواية والتوثيق مع عذوبة الأسلوب ودقة البيان كتفسير الطبرى ، وعلى هذا المنهج يسير ابن كثير فى تفسيره مع اهتمامه البالغ بتفسير القرآن بالقرآن ، وهو أعظم ما عرف من كتب التفسير سرداً للآيات المتناسبة فى المعنى الواحد .

ومنها ما يجعل وُكده العناية بالتطبيق البلاغى كتفسير الزمخشرى المسمى بالكشاف ، وليس هناك ما هو أفسح مجالاً وأوسع أفقاً منه فى هذه الزاوية .

ومن التفاسير ما يهتم بالرأى والاجتهاد ، ومنها تفسير الفخر الرازى المسمى بمفاتيح الغيب . ونحوه تفسير البيضاوى والنسفى .

ومنها ما يكون اهتمامه بمسائل العربية والقراءات ظاهراً ، كتفسير أبى حيان ، المسمى بالبحر المحيط . ويهتم النيسابورى بذكر القراءات .

كما أن تفسير الخازن مفعم بذكر القصص . ولا سيما الإسرائيليات .

وتفسير ابن عربى مترع بالمسائل الصوفية والتأويلات الباطنية .

ومن غرائب كتب التفسير تفسير البقاعى المسمى بالمناسبات . وقد حرص فيه على بيان مناسبة كل سورة لما قبلها من السور ، ثم توضيح مناسبة كل آية لما قبلها من الآيات ، ثم فلسفة مناسبة كل لفظة لما قبلها من الألفاظ . وهو كتاب عجيب حقًّا ، نتمنى أن يرى النور ويراه النور .

وهكذا نجد فى فن واحد من فنون التراث الإسلامى ألواناً مختلفة من

التأليف يلتزم كل منها نظاماً معيناً يحتذيه ويسير عليه ، وهو الأمر الذى يجعلنا نؤمن بالمنهجية التاليفية المنظمة عند أسلافنا العرب .

وإذا نظرنا إلى المؤلفات فى علم الحديث أو فى الفقه ، أو فى الأصول ، أو فى اللغة أو معاجمها – وجدنا كثيراً من الالتزام والنظام اللذين عاب علينا فقدهما بعض من ينظرون إلى الأمور نظرة لا تمتد إلى الغور ، ولا تخترق ظواهر الأمور إلى بواطنها .

إن المكتبة العربية مكتبة قوية حقًّا ، وإن فى أدباء العربية وعلمائها لمجموعة صالحة مفرطة العدد من الأدباء والعلماء الذين ارتقوا إلى الصف العالمى - عبقرية وامتيازاً .

فى المكتبة العربية دواوين لا يحصيها العد ، تجد فيها كل نفس ما يرضيها . وفيها مؤلفات طريفة تتناول ما تتناوله اليوم أرقى الآداب المعاصرة .

نماذج من كتب التراث

أمامنا كتاب «البخلاء» للجاحظ ، وهو الكتاب الفذ الذى لم تقع العين على مثله فى مخلفات الماضين إن لم نقل المعاصرين . وفيه صوّر البخل والبخلاء أصدق تصوير وأدقّه وأبلغه . ولو كانت لغة الجاحظ وأضرابه فى متناول فهم معاصرينا اليوم لانصرفوا إليها انصرافاً ، وشغفوا بها حبًّا ، ولكنا لا نزال نرقب فجر ذلك اليوم الذى نسترد فيه مجدنا اللغوى ونستعيد حريتنا الثقافية . وإنه لقريب .

انظر إلى قصة الكندى ، يقول الجاحظ :

كان الكندى لا يزال يقول للساكن ، وربما قال للجار : إن فى الدار امرأة بها حمل ، والوحمى ربما أسقطت من ريح القِدر الطيبة ؛ فإذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغَرفة أو لعقة ؛ فإن النفس يردُّها اليسير . قال : فكان ربَّما يوافى إلى منزله من قصاع الجيران والسكان ما يكفيه الأيام !

وكان الكندى يقول لعياله : أنتم أحسن حالاً من أرباب هذه الضياع : إنما لكل بيت منهم لون واحد ، وعندكم ألوان !

ويقول فى حديث خالد بن يزيد : إنه وقف عليه ذات يوم سائل وهو

فى مجلس من مجالسهم ، فأدخل يده فى الكيس ليخرج فلساً ، وفلوس البصرة كبار ، فغلط بدرهم بغلى[١] ، فلم يفطن حتى وضعه فى يد السائل ، فلما فطن استرده وأعطاه الفلس ، فقيل له : هذا لا نظنه يحل ، وهو بعدُ قبيح ! قال : قبيح عند من ؟ إنى لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم ! ليس هذا من مساكين الدراهم ، هذا من مساكين الفلوس ، والله ما أعرفه إلا بالفراسة !

وأمامنا أيضاً معجزة التأليف العربى ، كتاب الحيوان للجاحظ ، الذى يعد أول موسوعة عربية تناولت أطراف القول فى علوم الدنيا . وقد وشّحت هذه الموسوعة بدرر من فكاهة القول وطريف القصص .

هذا عبد الله بن سوّار القاضى ، قاضى البصرة[٢] كان محور طرفة خالدة له ، وصورة رائعة دقيقة من صور البيان الملوّنة ، يرسمها الجاحظ ناطقة ساكنة فى أسلوبه الخاص :

كان لنا بالبصرة قاضٍ يقال له عبد الله بن سوّار ، لم ير الناس حاكماً قط ولا زَميتاً ولا ركيناً[٣] ، ولا وقوراً ولا حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته – مثل الذى ضبط وملك ! كان يصلى الغداة فى

(١) نسبة إلى ضراب يهودى يعرف برأس البغل . وقدرت سعته بسعة الراحة . حواشى النقود الإسلامية للمقريزى ص ٢٢ .

(٢) الحيوان ٣ : ٣٤٣ .

(٣) الزميت : العظيم الوقار . والركين : الرزين .

منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه فيحتبى ولا يتكئ ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ، ولا يَحُلُّ حُبوته [١]. ولا يحوِّل رجلاً عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه كأنه بناءٌ مبنى أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى محلِّه ، بل كثيراً ما يكون كذلك إذا بقى عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلى العشاء الأخيرة وينصرف .

فالحقَ يقال : لم يقم فى طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماءً ولا غيره من الشراب . كذلك كان شأنه فى طوال تلك الأيام وفى قصارها ، وفى صيفها وفى شتائها ! وكان مع ذلك لا يحرك يده ، ولا يشير برأسه ، وليس له إلا أن يتكلم ثم يوجز ، ويبلغ بالكلام اليسير المعانى الكثيرة .

فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه ، وفى السماطين [٢] بين يديه — إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ، ثم تحول إلى مؤق عينيه [٣]. فرام الصبر فى سقوطه على المؤق ، وعلى عضه ونفاذ خرطومه ؛

---

(١) الحبوة : أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بثوب ، وقد يكون الاحتباء باليدين .

(٢) السماط : الصف .

(٣) مؤق العين : طرفها الداخلى . واللحاظ : طرفها الخارجى .

كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته[1] أو يغضّنَ وجهه ، أو يذب بإصبعه ! فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله ، وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل – أطبق جفنه الأعلى فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى الموالاة بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد إلى مؤقه باشد من مرّته الأولى ، فغمس خرطومه فى مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله أضعف ، وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى ، فحرّك أجفانه وزاد فى شدّة الحركة وفى فتح العين ، وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره ، وبلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذب عن عينه بيده ، ففعل وعيون القوم ترمقه وكأنهم لا يرونه ، فتنحّى عنه بمقدار ما رد يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذَبّ عن وجهه بطرف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألج من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ! وأستغفر الله فما أكثر من أعجبته نفسه . فأراد الله عز وجل أن يعرّفه من ضعفه ما كان مستوراً ! وقد علمت أنى عند الناس من أزمت الناس ؛ فقد غلبنى وفضحنى أضعف خلقه ! ثم تلا قوله تعالى : «وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه

(١) الأرنبة : طرف الأنف .

ضعف الطالب والمطلوب،

ويعرج على ذكر ما يثير العجب فى أنماط شتى من الناس ، طبقاً لأمزجتهم واختلاف نفوسهم ، فيقول(١) :

وقال رجل مرة : أخزى الله الفيل فما أقبحه ! فقال بكر بن عبد الله : لا تشتم شيئاً جعله الله آية فى الجاهلية ، وإرهاصاً فى النبوة !

وقال سعدان الأعمى النحوى : قلت للأصمعى : أىّ شىء رأيت أعجب ؟ قال : الفيل .

وقيل لابن الجهم : أى أمور الدنيا أعجب ؟ قال : الشمّ .

وقيل لإبراهيم النظام : أى أمور الدنيا أعجب ؟ قال : الروح .

وقيل : لأبى شمر : أى أمور الدنيا أعجب ؟ قال : النسيان والذكر

وقيل لسلم الخلال : أى أمور الدنيا أعجب ؟ قال : النار .

وقيل لبطليموس : أى أمور الدنيا أعجب ؟ قال : بدَن الفلك .

وقال مرة أخرى : الضياء .

وقيل لأبى عمرو بن قائد الأسوارى : أى شىء مما رأيت أعجب ؟ قال : الآجال والأرزاق .

وهذا ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » يذكر قاعدة رائعة شاملة لنقد الشعر العربى ، فيقسمه قسمة عادلة واضحة ، لا يخرج

(١) الحيوان : ٧ : ٢٠٢ .

عنها ، ولا يتجاوز حدودها فيقول :

تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب :

١ – ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه كقول القائل فى بنى أمية :

فى كفه خيزران ريحه عبق من كف أروع فى عرنينه شمم
يغضى حياء ويغضى من مهابته فلا يكلم إلاّ حين يبتسم

لم يقل أحد فى الهيبة أحسن منه . وكقول أوس بن حجر :

أيتها النفس أجملى جزعاً إن الذى تحذرين قد وقعا

لم يبتدئ أحد مرثية بأحسن منه ، وكقول أبى ذؤيب :

والنفس راغبة إذا رغَّبتَها وإذا ترد إلى قليل تقنع

٢ – وضرب حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلاً كقول القائل :

ولما قضينا من منىً كلَّ حاجة ومسَّح بالأركان من هو ماسحُ
وشُدّت على حُدب المهارِى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

وهذه الألفاظ أحسن شيء مطالع ومخارج ومقاطع ، فإذا نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قضينا أيام منى واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء (١). ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح – ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأباطح .

---

(١) الأنضاء : المهزولة . الواحد نضو بالكسر .

وهذا الصنف فى الشعر كثير . ونحوه قول المعلوط :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلاً بعينك ما يزال معينا[١]
غيّضن من عبراتهن وقلن لى ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا ؟

ونحوه قول جرير :

إنَّ العيون التى فى طرفها حورٌ
قتلننـــا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله إنسانا

٣ – وضرب منه جاد معناه ، وقصرت الألفاظ عنه ، كقول لبيد :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

هذا إن كان جيد المعنى والسبك – فإنه قليل الماء والرونق . وكقول النابغة للنعمان :

خطاطيف حُجن فى حبالٍ متينة تُمد بها أيدٍ إليك نوازعُ

قال أبو محمد[٢] : رأيت علماءنا يستجيدون معناه ، ولا أرى ألفاظه جياداً ولا مبينة لمعناه ؛ لأنه أراد : أنت فى قدرتك علىّ كخطاطيف عقف يمدّ بها ، وأنا كدلو تمد بتلك الخطاطيف .

---

(١) الوشل هنا : الدمع الكثير . والوشل : قليل الدمع وكثيره . والمعين : الظاهر الجارى .

(٢) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، صاحب الشعر والشعراء .

وعلى أنى أيضاً لست أرى المعنى حسناً .

٤ – وضرب منه تأخر لفظه وتأخر معناه ، كقول الأعشى فى امرأة :

وفوهـا كأقاحيٍّ غذاه دائم الطَّلِّ
كما شيب براحٍ با ردٌ من عسل النحل

وكقوله :

إنّ محلاًّ وإن مرتحلا وإن فى السَّفر ما مضوا مهلا
أستأثر الله بالوفاء وبالـ ـحمد وولى الملامة الرجلا

وهذا شعر منحول لا أعرف فيه شيئاً يستحسن إلا قوله :

يا خير من يركب المطىَّ ولا يشرب كأساً بكف من بخلا

يريد أن كل شارب يشرب بكفه ، وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من بخل . وهو معنى لطيف .

نماذج من كتب الرحلات :

وقد شارك العرب فى تأليف كتب الرحلات انطلاقاً وراء كتب الرحلات القديمة ، كرحلة هيرودوتس اليونانى .

ومن بين أقدم كتب الرحلات التى قام أصحابها بتصوير الشعوب ونقد أحوالها وشئونها الاجتماعية – نجد سابقة عريقة لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٨ قبل وفاة ابن جبير سنة

٦١٤ وعبد اللطيف البغدادى ٦٢٩ وابن بطوطة ٧٧٩ .

يقول فى مقدمة رحلته :

كنت إبان عصر الشباب مونق . وغصن الصبا مورق :

إذ لمتى مسودة ولماء وجهى رونق

ممن سامحه الدهر بغفلاته ، وتجافى له عن غفوة من غفواته ، فعاش آمن السرب ، سائغ الشرب ، لا يتفرغ من أدب يرود رياضه ، ويرد حياضه ، إلا إلى طرب يغمر ميدانه ، ويسحب ذيوله وأردانه . ثم تلوّن لى فقلب لى ظهر مجنه ، وسقانى وردى دنه ، فتدارك ما أغفله ، واسترد ما بذله ، واضطررت إلى مفارقة الوطن ، والخروج عن العطن ، فتماسكت إشفاقاً من مفارقة أول أرض مسَّ جلدى ترابها ، وَشدّت علىّ التمائم بها ، وجاءت أمور لا تطاق كبار . فلما لم يمكن القرار ، ولم يبق إلا الفرار — قلت : ليس لى إلا أن أرمى بنفسى كل مرمَى ، وأطرحها كل مطرح .

لأبلغ عذراً أو أنال رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وسكنت إلى البيت المشهور :

تلقى بكل بلاد إنْ حللت بها أهلا بأهل وأوطاناً بأوطان

وإن كان يقول العامة : ليس بين بلد وبلد نسب ، فخير البلاد ما حملك . فجعلت أستقرى البلاد لأتيمم أوفقها للمقام ، وأعونها على مقارعة الأيام ، فكانت مصر مما وقع عليه اختيارى ، وصدقت

حسن ظنى قبل اختبارى . وسرت قاصداً إليها أعتسف المجاهل والتنائف ، وأحوض المهالك والمتالف : فطوراً أمتطى كل حالكة الإهاب[١] ، مسودة الجلباب ، ثابتة كصبغة الشباب ، قد فسح ميدانها ، ووضع براحة الريح عنانها ، فجرت جرى الطِّرف الجموح ، وفاتت مدى الطرف الطموح . وطوراً كلَّ نقب الأياطل[٢] ، كالهياطل[٣] ، سبط المشافر جعد الأشعار ، احتذى العقيق ، أو الصنو الشقيق ، إن علا قلت · ظليم خاضب ، وإن هوى قلت : شهاب ثاقب ، يصل الذميل بالوخاد ، ويلتهم التهائم والنجاد ، فكم من جزع وادٍ جزعتُه ، وجلباب ليل ادرعته ، وكم برٍّ خرقت مخارمه وفجاجه ، وبحر شققت غواربه وأمواجه ، وليس لى غير مصر مقصد ، ولا وراءها مذهب ، ولا دونها للغنى متطلب .

وَكم فى الأرض من بلد ولكن   عليك لشقوتى وقع اختيارى !

فلما تغمرت ركابى من النيل ، واستندرت بظل المقطم — ألقيت عصا التسيار ، واستقرت بى النوى ، وخفت ظهورهن من الرحال ، وأرحتهن من الحل والترحال ، وقلت : ضالّتى المنشودة ، وبغيتى المقصودة ، هاهنا ألبث وأقيم ، فلا أبرح ولا أَريم : «بلدة طيبة ورب غفور» .

---

(١) يعنى السفينة .

(٢) الأيطل : الخصر . والنقب : تنفط الجلد ، وإنما نقب لإدمان السير . يعنى الفرس .

(٣) جمع هيطل ، وهو الذئب . ويشبه به الفرس فى شدة العدو .

ويقص لنا أبو الصلت قصة طبيب يعالج مرضاه بالعلاج النفسي ، وهو أحدث طرق العلاج وأعلاها في عصرنا الحاضر ، فيقول :

ومن طريف ما سمعته أنه كان بمصر منذ عهد قريب رجل ملازم للمارستان ، يستدعى للمرضى كما يستدعى الأطباء ، فيدخل على المريض فيحكى له حكايات مضحكة ، وخرافات مسلية ، ويخرج له وجوهاً مضحكة . وكان مع ذلك لطيفاً فى إضحاكه وبه خبيراً ، وعليه قديراً ، فإذا انشرح صدر المريض وعادت إليه قوته تركه وانصرف ، فإن احتاج إلى معاودة المريض عاده إلى أن يبرأ ، أو يكون منه ما شاء الله !

فليت أطباء عصرنا هذا بأسرهم قدروا على مثل هذا العلاج الذى لا مضرة فيه ولا غائلة له ، بل أمره على العليل هين ، ونفعه ظاهر بيّن ، كيف لا وهو ينشط النفس ، ويبسط الحرارة الغريزية ، ويقوى القوى الطبيعية ، ويقوى البدن على دفع الأخلاط الردية المؤذية والفضول ، مع الاستظهار بحفظ الأصول .

ونجده كذلك يفطن إلى ميل أهل مصر إلى استفتاء المنجمين والركون إلى من يدعون معرفة الغيب ، وهو الأمر الذى لا تزال بقايا منه سائدة إلى وقتنا هذا ، فيقول :

والمصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها ، وتعويلاً عليها ، وشغفا بها وسكوناً إليها . حتى إنه قد بلغ من زيادة أمرهم فى ذلك ألاّ يتحرك واحد منهم بحركة من الحركات الجزئية التى لا تحصر

فنونها ، ولا تحصّل أجزاؤها وأنحاؤها ، ولا تضبط جهاتها ، ولا تقيد غاياتها ، ولا تعد ضروبها إلا فى طوالع يختارونها ، ونصب يعتمدونها !

ومن الحكايات العجيبة فى فرط استعمالهم لأحكام النجوم وعنايتهم بها – ما شهدت بالصعيد الأعلى : وذلك أن بعض الولاة حبس رجلاً من بعض أهل تلك الناحية كان ينظر فى علم النجوم ، فشفع إليه فيه من يكرم عليه فشفّعه فيه ، وأمر بإطلاقه وكان من الحبس فى عذاب واصب ، وجهد ناصب ، فلما أنحوه وقالوا له : انطلق لشأنك – أخرج من كمه أصطرلاباً فنظر فيه ، ثم أخذ طالع الوقت فنظر فيه فوجده مذموماً ، فسألهم أن يتركوه مكانه إلى أن يتفق وقت يصلح للخروج من السجن ! فعادوا إلى الوالى فأخبروه بخبره ، فضحك منه وتعجب من جهله وفساد عقله ، وأجابه إلى سؤاله ، وتركه على حاله ، وأطال مدة اعتقاله !

وفى كتاب « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » ، المعروف خطأ برحلة عبد اللطيف البغدادى .

وهو عبارة عن فصلين من ثلاثة عشر فصلاً من تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » . وقد انتزع هذين الفصلين بعد اختصارهما وتهذيبهما ليكونا برسم الخليفة العباسى الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله يوسف (٥٢٢ – ٦٢٢) .

فى هذا الكتاب المختصر حديث مسهب فى خصائص مصر وآثارها

ومقابر قدماء المصريين وتوابيتهم وتماثيلهم المتقنة ، وكيف برع المصريون فى نحت جميع أجزائها ؟ فيقول بعد حديث طويل فى تحليل هذا النحت : «وأما حسن أوجهها وتناسبها فعلى أكمل ما فى القوى البشرية أن تفعله ، وأتم ما فى المواد الحجرية أن تقبله ، «ولم يبق إلا صورة اللحم والدم» .

وأعجب ما فى هذا الكتاب تسجيله لما شاهده بعينه فى المجاعة التى حدثت بمصر سنة ٥٩٧ هـ .

ويقول فى ذلك : «ودخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل ، وارتفعت الأسعار ، وأقحطت البلاد ، وأشعر أهلها البلاء ، وهرجوا من خوف الجوع ، ووقع المرض والموتان ، واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات ، والجيف ، والكلاب ، والبعر والأرواث ! ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بنى آدم ؛ فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون ، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل .

ورأيت صغيراً مشوياً فى قفة وقد أحضر إلى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه ، فأمر بإحراقهما .

وكان جماعة من الفقراء قد أووا إلى الجزيرة ، وتستروا ببيوت طين يتصيدون فيها الناس ، ففطن لهم وطلب قتلهم ، فهربوا . ووُجد فى بيوتهم من عظام بنى آدم شىء كثير . وخبرنى الثقة أن الذى وجد فى

بيوتهم أربعمائة جمجمه (١).

وهذا الكتاب جدير بإعادة نشره والتعليق عليه والإفادة منه ،وإن كان المستشرق الفرنسي دى ساسى قد عنى بنشره متنا وترجمة سنة ١٨١١ ومن قبله قام إدوارد بوكوك الإنجليزى (١٦٠٤ – ١٦٩١) بترجمته إلى اللاتينية ، ثم نشره توماس هايد متنا وترجمه فى أكسفورد (١٧٠٢) .

---

(١) نحو هذه الأخبار ما جاء فى النجوم الزاهرة فى حوادث ٥٩٧ «كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وشيه ، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا . وكان الرجل يدعو صديقه وأحب الناس إليه إلى منزله ليضيفه ، فيذبحه ويأكله . . .

إحياء التراث

ليس إحياء التراث أمراً حديثاً ، بل هو عمل طبيعي قامت به الأجيال القديمة على امتداد الدهر ، وعلى صور شتى ، من نشر ، أو تفسير ، أو تلخيص ، أو نقد أو تعليق . فكم قد رأينا من كتب قديمة خلفها أصحابها فقام النساخون والوراقون بإحيائها وإذاعتها على نطاق واسع :

فالمقريزى فى الخطط ٢ : ٢٥٣ – ٢٥٥ يذكر أنه كان فى خزانة العزيز بالله ٣٠ نسخة من كتاب العين ، و ١٠٠ نسخة من جمهرة ابن دريد . كما يذكر أنه كان فى خزانة الفاطميين ١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبرى .

ويروى ابن النديم (الفهرست ٣٦٩) فى ترجمته ليحيى بن عدى المنطقى النصرانى أنه كان ينسخ كتب التفسير والكلام . ويروى عنه أنه قال : نسخت بخطى نسختين من التفسير للطبرى وحملتهما إلى ملوك الأطراف . وقد كتبت من كتب المتكلمين مالا يحصى .

ومن طريف ما يروى عن أحد النحاة ، وهو يحيى بن محمد الأرزنى ما ذكره ياقوت فى شأنه : أنه كان يخرج فى وقت العصر إلى سوق

الكتب ببغداد ، فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصيح لثعلب ، ويبيعه بنصف دينار ، ويشتري نبيذاً ولحماً وفاكهة ، ولا يبيت حتى ينفق ما معه منه !

هذا جانب من جوانب إحياء التراث قديماً ، أما الآخر فيتمثل فى شرح ذلك التراث ، ونحن نجد أن حماسة أبى تمام المتوفى سنة ٢٣١ تناولها بالشرح أكثر من أديب ، فشرحها أبو بكر الصولى ، والمرزوقى ، وابن جنى ، والآمدى ، والتبريزى ، وأبو هلال العسكرى ، وابن سيده ، والشنتمرى ، وغيرهم ممن أحصى عددهم صاحب كشف الظنون ، واحداً وعشرين شارحاً . وذكروا أن أول شارح لها هو أبو رياش أحمد بن إبراهيم الشيبانى المتوفى سنة ٣٣٩ .

وكتاب سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ شرحه أو قام بخدمته أكثر من ٥٥ عالماً : منهم السيرافى ، والرمانى ، والزمخشرى وابن الحاجب ، والشلوبين ، وابن الباذش .

ومقامات الحريرى أبى محمد القاسم بن على (٤٤٦ – ٥١٦) تولى شرحها كثيرون ، منهم صدر الأفاضل قاسم بن حسين الخوارزمى (٦١٧) ، وناصر بن عبد السيد المطرزى (٦١٠) ، وأبو البقاء العكبرى (٦١٦) ، وأحمد بن عبد المؤمن الشريشى (٦١٩) وله شروح ثلاثة على المقامات : كبير ، وأوسط ، وصغير .

وكتاب «إحياء علوم الدين» لأبى حامد الغزالى (٥٠٥) شرحه

الزبيدى صاحب تاج العروس (١٢٠٥) ، وطبع هذا الشرح بفاس سنة ١٣٠٢ فى ١٣ جزءاً ، ثم فى الميمنية سنة ١٣١١ هـ فى ١٠ أجزاء . وقام أخوه أحمد بن محمد الغزالى باختصاره . واختصره كذلك أبو العباس الموصلى (٦٢٢) اختصارين ، كما اختصره السيوطى (٩١١) . وآخر اختصار له إلى اليوم ما نشره عبد السلام هارون باسم « تهذيب إحياء علوم الدين » .

إحياء التراث فى العصور الحديثة :

أما إحياء التراث فى هذه العهود الحديثة فقد لبس ثوباً جديداً يمتاز بالنشاط السريع الذى يتمثل فى إنتاج المطبعة الحديثة ؛ فهى كانت عاملاً فعالاً فى نشر التراث الفكرى على نطاق واسع وعلى صور شتى ، ودرجات مختلفة من الصحة والتوثيق ، ومراحل متدرجة من الدقة والعناية حتى وصلت إلى ما يشبه القمة فى عصرنا الحاضر.

وإذا تحدثنا عن المطبعة رجع بنا التاريخ إلى سنة ١٤٥٠ التى طبعت فيها التوراة ، بعد أن ابتدع جوتنبرج الألمانى « المطبعة » .

أما الطباعة العربية فكان مهدها الأول فى إيطاليا فى أوائل القرن السادس عشر ؛ إذ ظهرت أول مطبعة عربية فى مدينة فانو بأمر البابا يوليوس الثانى ، وافتتحها ليون العاشر سنة (١٥١٤) ومن أوائل ما طبع فيها سفر الزبور (١٥١٦) . ثم مطبعة البندقية وفيها طبع

القرآن الكريم للمرة الأولى ، وبعد أن تم طبعه صودرت نسخه وقضى عليها بدافع تعصبي ، ثم طبعت أول ترجمة إيطالية للقرآن سنة ١٥٤٧ .

وفى مطبعة روما (١٥٩٣) طبع «قانون ابن سينا» فى الطب ، ومعه علم المنطق ، وعلم الطبيعى ، وكتاب النجاة له أيضاً ، وكان صدور هذا الكتاب بداية عهد جديد فى دراسة الطب .

ثم تعددت المطابع العربية فى أوربا وطبع فيها مئات من الكتب العربية والشرقية ؛ أكثرها فى لندن وباريس ، وليبزج ، وليدن ، وغوتنجن ، وروما ، وفيينا ، وبرلين ، وبطرسبرج .

وكانت الآستانة أسبق مدن الشرق إلى الطباعة ، وتم طبع التوراة العربية فيها ترجمة سعيد الفيومى فى سنة ١٥٥١ لكن هذه الترجمة العربية طبعت بحروف عبرية ، مبالغة فى التعصب .

وفى القرن الثامن عشر ظهرت الطباعة بالحروف العربية فى كل من الآستانة وسورية ولبنان ، فطبع الإنجيل وطائفة من الكتب المسيحية فى سوريا بدءاً من سنة ١٧٠٢ .

أما فى تركيا فكان القوم فى حال تردد فى طبع كتب الحكمة واللغة والتاريخ والطب والفلك التى لم يجرؤ أحد على طبعها إلا بعد صدور فتوى من شيخ الإسلام عبد الله أفندى سنة ١٧١٦ بجواز ذلك ، فيما عدا الكتب الدينية التى استصدرت فتوى أخرى بعدها لإجازة طبعها . وتعددت المطابع فى الآستانة ، فكان أشهرها مطبعة الجوائب

لأحمد فارس الشدياق ، ونشر فيها إلى جانب صحيفة الجوائب طائفة صالحة من الكتب العربية .

وتلتها فى ذلك لبنان . وكان من أقدم مطابعها مطبعة قزحيا ، بدأت بالحروف السريانية ، ثم انتقلت إلى العربية ، وكان اهتمامها بالمطبوعات الدينية ، ومطبعة الشوير التى أسسها عبد الله زاخر ، وكان معظم منشوراتها من الكتب الدينية كذلك.. ثم ظهرت مطبعة القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس فى بيروت سنة ١٧٥٣ وطبعت كثيراً من كتب الأدب والتاريخ ، ثم المطبعة الأمريكية للمبعوثين الأمريكان أنشئت فى مالطة سنة ١٨٢٢ ثم نقلت إلى بيروت سنة ١٨٣٤ وطبعت كثيراً من الكتب المدرسية وطائفة من كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعر . ثم المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين سنة ١٨٥٤ فكان لها فضل عظيم فى نشر كثير من أمهات التراث العربى ، منها نوادر أبى زيد الأنصارى سنة ١٨٩٤ وتهذيب الألفاظ للتبريزى سنة ١٨٩٥ .- ثم المطبعة السورية لخليل الخورى صاحب حديقة الأخبار أنشأها سنة ١٨٥٧ . ثم مطبعة المعارف للبستانى (بطرس بن بولس) سنة ١٨٦٧ وهى التى قامت بنشر دائرة المعارف له ثم لولده سليم . وكذا محيط المحيط ، وقطر المحيط .

أما فى (مصر) فإن أقدم مطبعة ظهرت فيها هى مطبعة الحملة الفرنسية التى أحضرها نابليون معه سنة ١٧٩٨ لطبع المنشورات

السياسية والأوامر باللغة العربية ، وكانت تعمل وهى على السفينة فى عرض البحر ، وحينما اقتحمت هذه الحملة ثغر الإسكندرية قام رجالها بتوزيع المنشورات التى أعدوها فى البحر ، وأطلق على هذه المطبعة اسم «المطبعة الأهلية» . ثم نقلت إلى القاهرة ، واستمرت فى عملها إلى سنة ١٨٠١ حيث تم انسحاب الفرنسيين ؛ ومن أظهر إنتاجها كتاب فى الهجاء باللغات العربية والتركية والفارسية ، وكانت حروفها عربية وإفرنجية ويونانية .

ومرت فترة من الزمن زهاء عشرين سنة وليس فى مصر طباعة ولا مطبعة ، حتى استقر الأمر لمحمد على ، فأنشأ مطبعة على أنقاض المطبعة الأهلية الفرنسية ، وسميت بالمطبعة الأهلية أيضاً ، وذلك فى سنة ١٨٢١ ، ثم نقلت إلى بولاق فعرفت بمطبعة بولاق ، وعهد بإدارتها إلى نقولا مسابكي السورى . وكان هذا قد بدأ دربته الفنية على الطباعة فى روما فى نحو أربع سنوات لصنع أمهات الحروف وسبكها . وكان محررو مطبعة بولاق من الطلبة الأزهريين الذين دربوا لذلك تدريباً خاصاً استغرق نحو ست سنوات .

ومن ألمع نظار مطبعة بولاق حسين حسنى (باشا) الذى بدأ أمره مصححاً وكاتباً بالتركية فى الوقائع المصرية سنة ١٨٥١ ثم عمل فى المطبعة إلى أن ولى نظارتها سنة ١٨٨٠ . وهو أول من أنشأ مصنعاً للورق فى مصر ، وكان معظمه قبل ذلك يستورد من إيطاليا .

وقد استمرت مطبعة بولاق فى عملها أكثر من ٩٠ سنة لم تركد فى أثنائها إلا بضع سنوات فى الفترة التى انقضت بين عهد محمد على وإسماعيل ، وكان نشاطها ظاهراً فى طبع مئات من الكتب العربية فى الطب ، والرياضة ، والطبيعة ، والفنون الحربية ، والتاريخ ، والأدب ، والشعر ، والتفسير ، والحديث ، وغيرها . وهذه المطبعة هى نواة المطبعة التى عرفت منذ عهد قديم باسم المطبعة الأميرية . وظهرت إلى جانبها مطبعتان حكوميتان فى طرة ، وفى أبى زعبل .

أما المطابع غير الأميرية فلم تظهر إلا بعد مضى نحو أربعين سنة من إنشاء مطبعة بولاق . وأولها المطبعة الأهلية القبطية التى عرفت فيما بعد بمطبعة الوطن ، أنشئت سنة ١٨٦٠ بعد أن تدرب عمالها فى مطبعة بولاق بإذن من سعيد باشا .

ومن أقدم المطابع الأهلية كذلك مطبعة وادى النيل ١٨٦٦ طبعت فيها صحيفة وادى النيل التى أنشأها صاحبها أبو السعود أفندى ، ومطبعة جمعية المعارف التى أسسها محمد عارف باشا أحد أعضاء مجلس الأحكام بمصر سنة ١٨٦٨ .

وقد لقيت هذه الجمعية العلمية إقبالاً كبيراً واستجابة سريعة من المثقفين وغيرهم ، وكان لأعضائها ميزة فى أن يحصلوا على الكتب بثمن أقل مما يطلب من غيرهم . وقد نشرت الجمعية طائفة من الكتب القيمة فى اللغة والتاريخ والأدب ، منها تاج العروس للزَّبيدى ، وكتاب ألف باء

للبلوى ، ومنها كتاب «أسد الغابة فى معرفة الصحابة» لابن الأثير. و«الفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبى» . وهو من أعجب كتب التاريخ ؛ إذ هو شرح لكتاب تاريخى ألفه أبو نصر العتبى ليسرد فيه وقائع يمين الدولة محمود بن سبكتكين (٣٦٠ – ٤٢١ هـ) بأسلوب أدبى فنى ، وسماه «اليمينى» نسبة إلى يمين الدولة هذا . وقد تتابع عليه شرّاح كثيرون كان أبرزهم وأشهرهم هذا المؤلف ، وهو أحمد بن على المنينى (١٠٨٩ – ١١٧٢) الذى سمى شرحه بالفتح الوهبى .

ومنها تاريخ ابن الوردى مذيلاً بالحوادث التى جرت بعد وفاة المؤلف ، أى من سنة ٥٧٠ إلى سنة طبع الكتاب ١٢٨٥ هـ .

ومن الجمعيات التى قامت على إحياء التراث فى ذلك العهد : شركة طبع الكتب العربية ، وقد ظهرت بعد تأسيس جمعية المعارف بثلاثين سنة : أى سنة ١٨٩٨ . وقد طبعت طائفة صالحة من كتب الفقه والتاريخ : منها : الموجز فى فقه الشافعى ، وفتوح البلدان للبلاذرى ،

ومن الطريف حقاً أن نشهد قيام جمعية خيرية خاصة «من فضلاء المصريين وسراتهم ذوى الهمم العلية» لنشر كتاب معين ، هو كتاب المخصص لابن سيده ، وذلك فى سنة ١٩٠٢ وكان من أعضائها الشيخ محمد عبده ؛ وحسن عاصم ، وعبد الخالق ثروت ، ومحمد النجّارى ، ووكلوا تصحيح الكتاب إلى الإمام محمد بن محمود التركزى الشنقيطى بمعاونة الشيخ عبد الغنى محمود أحد علماء الأزهر .

ولقد كانت فكرة إحياء التراث والنشاط فيه فكرة قومية قبل أن تكون فكرة علمية ، فإن طغيان الثقافة الأوربية والنفوذ التركى وضغطه كان يأخذ بمخنق العرب فى بلادهم ، فأرادوا أن يخرجوا إلى متنفَّس يحسون فيه بكيانهم المستمد من كيان أسلافهم فى الوقت الذى ألفوا فيه الغرباء من الأوربيين يتسابقون وينبشون كنوز الثقافة العربية ، فانطلقوا فى هذه السبيل ينشرون ويحيون ؛ إذ كانوا يرون أنهم أحق بهذا العمل النبيل وأجدر .

جهود المستشرقين :

إن الجهد العلمى الذى بذله المستشرقون فى إحياء التراث العربى جهد لا يستطاع إنكاره ؛ فهم كانوا أساتذة الجيل الحاضر فى الطريقة العلمية التى جروا عليها . ولا ريب أن تحقيق النصوص وتوثيقها فن عربى أصيل ، يتجلى فى معالجة أسلافنا الأقدمين لرواية كتب الحديث واللغة والشعر والأدب والتاريخ فى دقة وأمانة ونظام بارع ، ولكن المستشرقين تبنَّوا إحياء هذا الفن فى هذه العصور القريبة ، ونبغ من بينهم علماء أمناء قاموا بنشر عيون ثمينة من التراث العربى فى أمانة علمية دقيقة اقتبسوها من أسلافنا مقرونة بعناية خاصة بالفهارس الفنية ، وهذا أيضاً كان شأن جمهور أسلافنا ؛ فكتب الرجال عندنا تنال ترتيباً فهرسيًّا ممتازاً مقروناً بالإحالات الذكية ؛ كما أن مقابلة المخطوطات ومقارنتها ميزة عربية سباقة

عرفها آباؤنا الأولون .

وإذا أحببت أن أنوه بالقمة العليا من نوابغ هؤلاء المستشرقين فلن أستطيع إغفال كل من :

١ – وستنفلد الألمانى Wustenfeld (١٨٠٨ – ١٨٩٩) الذى ألف وحقق نحو مائتى كتاب بين صغير وكبير : منها كتاب سيرة ابن هشام ، ومعجم ما استعجم للبكرى ، وقد نشره مكتوباً بخط يده مطبوعاً بمطبعة الحجر (ليتوجراف) .

٢ – بيفان الهولندى : Bevan (١٨٥٩ – ١٩٣٤) ناشر نقائض جرير والفرزدق مذيلة بالفهارس المبتكرة والتعليقات ، ومنها تفسيره وفهرسته للألفاظ التى لم تذكر فى المعاجم المتداولة . وهو مما يذكر له بالتقدير .

٣ – تشارلس لايل الإنجليزى : Charles Lyall (١٨٤٥ – ١٩٢٠) محقق شرح المفضليات لابن الأنبارى ، مع ترجمة شعرية لها باللغة الإنجليزية . ومن عجب أنه استطاع أن ينظم هذه الأساليب والمعانى الجاهلية فى ثوب شعرى إنجليزى قشيب .

٤ – رودلف جاير الألمانى المقعد : Rudolf Geyer (١٨٦١ – ١٩٢٩) محقق ديوان الأعشى الذى أسماه «الصبح المنير فى شعر أبى بصير» . وتظهر عنايته الفائقة فى تخريج هذه الأشعار من ٥٦٩ مرجعاً ، مع مقابلات كاملة لرواية النصوص بيتاً بيتاً وكلمة كلمة .

٥ – وليم رايت الإنجليزى : W. Wright (١٨٣٠ – ١٨٨٩) وهو تلميذ المستشرق الكبير دوزى ، وقد تولى نشر الكامل للمبرد لأول مرة فى حذق وإتقان ، وقد نشر الكتاب وهو فى سن الرابعة والثلاثين ، وذلك قبل أن تظهر الطبعات المصرية بنحو ربع قرن . وتمتاز طبعته بالفهارس الدقيقة الوافية .

٦ – هرتويغ درنبرغ الفرنسى Hartwis Derenbours (١٨٤٤ – ١٩٠٨) الذى نشر كتاب سيبويه فى سنة ١٨٨١ : أى قبل أن تظهر طبعة بولاق بعشرين سنة .

٧ – غوستاف يان الألمانى : Gustave Jan (١٨٣٧ – ١٩١٧) الذى ترجم كتاب سيبويه كاملاً إلى اللغة الألمانية ، مع إضافات وتعليقات بالعربية مقتبسة من شروح السيرافى والشنتمرى ، ومن خزانة الأدب وغيرها .

وقد ظهرت تلك الترجمة فى خمسة مجلدات من سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٩٠٠ .

وغوستاف يان هذا هو الذى أخرج شرح المفصل لابن يعيش مقابلاً بمخطوطات ليبزج وأكسفورد والآستانة فى سنة ١٨٨٢ ، وذلك قبل أن تظهر الطبعة المصرية لمحمد منير الدمشقى بنحو ٥٠ سنة أى نصف قرن .

جهود عربية مبكرة :

من الجهود العربية المبكرة فى إحياء التراث العربى ، جهود مطبعة بولاق ، ودار الكتب المصرية ، والمكتبة الميمنية ، ودار الكتب العربية الكبرى ، ومكتبة مصطفى الحلبى ، ودار إحياء الكتب العربية ، ومكتبة الخانجى ، والمكتبة السلفية ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، ودار المعارف ، وجامعة القاهرة ، والمجمع العلمى العربى بدمشق ، والمجمع اللغوى بالقاهرة ، والمجمع العلمى العراقى ، ومكتبة المثنى ببغداد ، والمعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ، والمعهد العلمى الفرنسى بدمشق ، ودائرة المطبوعات والنشر بالكويت . والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف ، وإدارة التأليف والترجمة والنشر ، والمجلس الأعلى للفنون والآداب ، والمؤسسة العربية الحديثة ، ودار الثقافة ببيروت ، ودار المعارف للتأليف والترجمة والنشر بالعراق . وسأخص بعض هذه المؤسسات بالذكر :

جهود مطبعة بولاق :

أما جهود مطبعة بولاق فتبدو واضحة فى نشر أمهات كتب التراث : أمثال صحيح مسلم ، وصحيح البخارى ، وخزانة الأدب ، والأغانى ، ولسان العرب ، وصحاح الجوهرى ، والقاموس المحيط ، وكتاب

سيبويه ، والمخصص لابن سيده ، وشرح الحماسة للتبريزى ، وشرح المقامات للشريشى ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ، وصبح الأعشى ، وكثير غيرها من أمهات الكتب .

ويحفظ لنا التاريخ أسماء شيوخ عظام كانوا يقومون — فى أمانة — بإخراج تلك الكتب على قدر طاقتهم العلمية ومنهجهم الساذج فى الإخراج ، منهم : الشيخ نصر الهورينى ، والشيخ قطة العدوى ، والشيخ محمد الحسينى ، والشيخ طه محمود ، والشيخ محمد عبد الرسول وغيرهم .

دار الكتب المصرية :

وأما دار الكتب المصرية فإليها يرجع الفضل الأخير فى القدوة المثالية للمحققين المعاصرين ، ولعل أول نافخ فى بوق إحياء التراث العربى على النهج الحديث فى مصر هو المغفور له أحمد زكى باشا الذى قام بتحقيق كتابى أنساب الخيل لابن الكلبى ، والأصنام لابن الكلبى أيضاً . وقد طبعا فى المطبعة الأميرية سنة ١٩١٤ باسم لجنة إحياء الآداب العربية التى عرفت فيما بعد باسم القسم الأدبى . ولعل هذين الكتابين مع كتاب « التاج » للجاحظ الذى حققه أيضاً — من أوائل الكتب التى كتب فى صدورها كلمة « بتحقيق » ؛ كما أن تلك الكتب قد حظيت بإخراجها على أحدث المناهج العلمية للتحقيق مع استعمال المكملات الحديثة : من تقديم النص إلى القراء ، ومن إلحاق الفهارس التحليلية . ويضاف

إلى ذلك أنه أول من أشاع إدخال علامات الترقيم الحديثة فى المطبوعات العربية ، وألف فى ذلك كتاباً سماه « الترقيم فى اللغة العربية » طبع فى بولاق فى زمن مبكر جداً هو سنة ١٩١٣ وإن كان يؤخذ عليه أنه كان يبالغ فى استعمال تلك العلامات ، ولا سيما فى الشعر الذى كان يختم كل بيت مستقل فيه بنقطة يضعها فى نهايته .

ومن أوائل مطبوعات دار الكتب صبح الأعشى للقلقشندى فى ١٤ مجلداً سنة ١٩٢٠ بالمطبعة الأميرية باسم دار الكتب . وتعد هذه الطبعة هى الطبعة الثانية ؛ إذ طبع قبل ذلك . فى مطبعة بولاق سنة ١٩٠٥ .

ثم نهاية الأرب الذى بدأت طبعه محققاً سنة ١٩٢٣ بمطبعتها التى أنشأتها .

وكانت الصيحة المدوية لدار الكتب المصرية تبنيها لطبع كتاب الأغانى لأبى الفرج بإشراف القسم الأدبى الذى كان يرأسه المغفور له أحمد زكى العدوى بناء على اقتراح السيد على راتب الذى تكفل بنفقات طبعه ، وصدر الجزء الأول منه فى سنة ١٩٢٧ وحظى بعناية كاملة فى إعداد الأصول وصنع الفهارس التحليلية فى نهاية كل جزء من أجزائه .

واستمرت دار الكتب فى أداء مهمتها تنشر موسوعات التراث : ومنها النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وتفسير القرطبى .

ثم ضعفت العناية بهذا القسم إلى أن تولى الأستاذ أمين مرسى قنديل إدارة دار الكتب ، فقام بمجهود ضخم جداً لمسته بنفسى ؛ إذ حاول

أن ينقذ هذا القسم من الفناء ، فدبت الحركة فيه ، وحاول أن يخلص كتاب الأغانى من ورطته التاريخية ، فعهد إلى بعض العلماء بإتمام ما بقى من أجزائه ، ولكن الظروف لم تسعفه بتنفيذ فكرته النشيطة ، وكاد القسم الأدبى فى عهده يرتقى القمة فى نشر موسوعات التراث ، ولكن أطاحت بذلك فكرة خاطئة مغرضة تزعم أن ليس من وظائف دور الكتب فى أوربا أن تضطلع بنشر التراث ، وكأننا فى جميع خطواتنا إنما نترسم أوربا فى حقها وفى باطلها !

وفى أسف بالغ ودع المثقفون هذا القسم الأدبى الذى قضى على نشاطه بعد عهد أمين مرسى قنديل ، أطال الله فى حياته .

ويعد إلغاء هذا القسم جريمة لا تغتفر فى حق إحياء التراث العربى ، ويجب كل الوجوب أن يبعث ثانياً ليؤدى رسالته التى لا يستطيع أداءها غيره نظراً إلى وفرة المراجع المخطوطة والمطبوعة وإمكان تجنيد طائفة من العلماء ، وإعداد جيل يتلقى فن التحقيق بوجه عملى فى رحاب دار الكتب .

جمعية المستشرقين الألمانية :

ويرجع تاريخها الأول إلى سنة ١٨٤٥ حيث أسست فى ألمانيا فى مدينة هالة ، ثم أنشأت فروعاً لها فى الشرق ، أهمها فرع الآستانة ١٩١٨ تولى الإشراف عليه وتأسيس مكتبته المستشرق هلموت ريتر ، وقام مع

غيره بنشر طائفة من كتب التراث الهامة : منها مقالات الإسلاميين للأشعرى ، والوافى بالوفيات للصفدى بتحقيق ريتر ثم ديدرنج ، والمحتسب لابن جنى بتحقيق برجستراسر.

ثم فرع القاهرة الذى سمى بمعهد الآثار ، وكان يديره رويمر الذى حقق الجزء التاسع من كنز الدرر وجامع الغرر ، للداودى .

ثم معهد الدراسات الشرقية فى بيروت سنة ١٩٦٠ . ومن جهوده إعادة نشر الأجزاء الأولى من الوافى بالوفيات للصفدى ، وطبقات المعتزلة بتحقيق السيدة فليتسردى فالد من معهد إستانبول ، وكتاب النحاة للمرزبانى بتحقيق سلايم من جامعة فرانكفورت .

مكتبة الخانجى :

وممن لهم اليد الطولى فى إذاعة التراث العربى السيد محمد أمين الخانجى ، وفيه يقول أحد أدبائنا الأعلام[١] : « وقل أن تجد عالماً أو أديباً فى زمنه لم يكن لهذا الرجل النحيف الضئيل فضل عليه . يذكره الذاكر محسناً فى ذكره ، وينساه الناسى مسيئاً فى إساءته ، ذلك هو أمين الخانجى الذى أحب الكتاب العربى كأنه تراث أبيه وأمه » .

وقد رأيت هذا الرجل فى صباى ، وعرفت فيه الإخلاص للعلم وحده ؛ إذ لم يكن المال عنده إلا فى المرتبة الثانية ، كما لمست فيه

(١) الأستاذ محمود شاكر فى مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام .

الإخلاص فى نشر التراث العربى لا يكاد يعترف بغيره .

وقد قدَّم إلى قارئ العربية مجموعة ضخمة من كتب التراث . يكفى أن نذكر منها : « معجم البلدان » لياقوت مع ذيله « منجم العمران » ، وكذا حلية الأولياء لأبى نعيم ، وبدائع الصنائع . والإصابة لابن حجر ، وتاريخ بغداد ، والعقد الفريد ، واللزوميات لأبى العلاء ، وجواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر ، وتيسير الوصول إلى جامع الأصول لابن أبى الديبع الشيبانى بتحقيق الشيخ محمد هارون .

ومن المعروف عنه أنه رحل إلى العراق وغيرها من البلدان العربية . وعاد من رحلته سنة ١٩٢٥ جامعاً لنوادر المخطوطات التى لا يقدرها الثمن ، وكان له ذوق مبكر فى منهج نشر الكتب وترقيمها ، واختيار الصالح منها للنشر .

وبعد وفاته فى سنة ١٩٢٨ قام مقامه ولده محمد نجيب الخانجى وورث عنه الرغبة الملحة فى إحياء التراث عن صدق لمسته فيه من طول صحبتى له ، ومن منشوراته مما حققه كاتب هذه السطور : البيان والتبيين للجاحظ ، والاشتقاق لابن دريد ، ورسائل الجاحظ ، ونوادر المخطوطات فى مجلدين ، وهى خمسة وعشرون كتاباً ورسالة . ومما حققه غيرى : صون المنطق ، وطبقات الصوفية للسلمى ، كما أسهم فى نشر الصلة ، وتكملة الصلة ، وصلة الصلة وغيرها .

المكتبة السلفية :

أنشأها الأستاذ محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان سنة ١٩٢٠ ، ثم استقل بها محب الدين الخطيب ، ونشر كثيراً من كتب السلف : منها أدب الكاتب لابن قتيبة سنة ١٩٢٧ وقد شاركته فى إخراجه وتتلمذت عليه فى ذلك الوقت حينما كنت طالباً فى تجهيزية دار العلوم ، فهو كان أستاذى الأول فى ذلك .

ومما نشره لأول مرة كتاب الميسر والقداح لابن قتيبة ، سنة ١٣٤٢ ، وصنع له فهارس فنية فى ذلك الوقت المبكر .

ونشر كذلك كتاب الملاحن لابن دريد ، والثلث الأول من كتاب خزانة الأدب . وظهر هذا الثلث فى أربعة أجزاء بتحقيق وإضافة تعليقات لأحمد تيمور باشا وعبد العزيز الميمنى الراجكوتى ، وكنت لا أزال إذ ذاك طالباً فى دار العلوم .

لجنة التأليف والترجمة والنشر :

وكانت نواتها طائفة من طلبة مدرسة المعلمين العليا ومدرسة الحقوق ، يقول فيهم الدكتور أحمد أمين (فى كتاب لجنة التأليف والترجمة والنشر فى عشرين عاماً) : طائفة من الشباب تمتلئ نفوسهم غيرة على العالم الإسلامى ، ويطيلون التفكير فى وسائل إصلاحه والنهوض به ،

ألف بين أفرادها الشعور بالألم من موقف الشرق وخموله ، والإيمان بوجوب العمل على تنبيهه . والأخذ بيده ورفع مستواه» .

وكان منهم : أمين مرسى قنديل ، وعبد الحميد العبادى ، ومحمد بدران ، ومحمد صبرى أبو علم ، وتولى رياستها الأستاذ أحمد أمين ، فظهر نشاطها بارزاً فى إحياء التراث ، ونشرت السلوك للمقريزى بتحقيق الدكتور زيادة سنة ١٩٣٤ ، ثم المختار من شعر بشار للخالديين ، وغيره من نفائس التراث كالعقد الفريد ، ومعجم ما استعجم للبكرى بتحقيق مصطفى السقا ، وشرح الحماسة للمرزوقى بتحقيق عبد السلام هارون .

جامعة القاهرة :

ومن أقدم منشوراتها «الذخيرة» فى علم الطب لثابت بن قرة تحقيق جورجى صبحى سنة ١٩٢٨ ، ومنتخب جامع المفردات للغافقى تحقيق ماكس ماير هوف وجورجى صبحى سنة ١٩٣٢ ، ونقد النثر لقدامة بن جعفر تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادى سنة ١٩٣٣ ، ورسائل فلسفية للرازى تحقيق بول كراوس سنة ١٩٣٨ ، وبعض أجزاء من الذخيرة لابن بسّام تحقيق عبده عزام ، وعبد العزيز الأهوانى ، وخليل عساكر ، وعبد القادر القط سنة ١٩٣٩ — ١٩٤٥ ، وكتاب

الأصل للإمام محمد بتحقيق شفيق شحاتة سنة ١٩٥٤ ، والسير الكبير له تحقيق محمد أبو زهرة ومصطفى زيد سنة ١٩٥٨ .

جهود الكردى ، والساسى ، ومحمد منير ، والقدسى :

أما الكردى فهو فرج الله زكى الكردى ، وقد أنشأ مطبعة سماها مطبعة كردستان العلمية بدأت نشاطها نحو سنة ١٩١١ ، ونشر فيها طائفة من كتب التراث على منهج علمى مقارب : منها كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

وأما الساسى فهو محمد ساسى المغربى ، وكان تاجراً بالفحامين ، وقد تولى الإنفاق على طبع موسوعات هامة : منها كتاب الأغانى لأبى الفرج الذى أظهره مذيلاً بالفهارس ومكملاً بالجزء الحادى والعشرين ، ولا تزال طبعته هى الطبعة الأكثر تداولاً .

ومحمد منير الدمشقى كان له فضل لا ينكر فى نشر موسوعات التراث : منها عمدة القارى شرح صحيح البخارى للعينى ، وشرح المفصل لابن يعيش ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير وغير ذلك .

ومن الناشرين المعاصرين المكافحين رجل لا يزال يوالى نشاطه فى إحياء التراث ، هو حسام الدين القدسى ناشر تاريخ الإسلام للذهبى ، ولو وجد عوناً من أولى الأمر لأتم هذه المهمة الجليلة التى بدأها منذ عهد قديم ، ولكن الرجل مغمور مع أنه جدير بأن يلقى من التشجيع ما يمكنه

من أداء رسالته . وقد حدّثنى أنه ينسخ الكتاب بنفسه ، ثم يجمع حروفه بيده ، ثم يصححه ، ثم يدفع به إلى المطبعة . ويكفى أن نذكر من جهوده نشر شذرات الذهب لابن العماد ، والضوء اللامع للسخاوى ، ومجمع الزوائد للهيثمى ، وديوان المعانى للعسكرى ، واللباب فى تحرير الأنساب ، وذيول تذكرة الحفاظ .

دار المعارف :

وقد بدأت نشاطها فى إحياء التراث العربى سنة ١٩٤٢ حين فكرت أنا وأخى العلامة المغفور له الشيخ أحمد شاكر فى نشر مجموعات من عيون الشعر سميناها « ديوان العرب » . وبدأنا فى نشر « المفضليات » ثم « الأصمعيات » .

ثم اقترحنا على الدار أن تخصص نشراً منظماً لعيون التراث العربى ، فسرعان ما استجابت لهذا الاقتراح وقامت بتنظيم تنفيذه . وأذكر أن الدار قد أعلنت فى ذلك الوقت عن مسابقة لتسمية هذا المشروع ، ففاز به عنوان « ذخائر العرب » يشترك فى تحقيقها علماء الشرق والغرب ، وكان باكورة هذه المجموعة كتاب « مجالس ثعلب » فى مجلدين بتحقيق عبد السلام هارون ، و « إصلاح المنطق لابن السكيت » بتحقيقه مع الشيخ أحمد شاكر ، والطبعة الأولى من « جمهرة أنساب العرب لابن حزم » تحقيق أ . ليفى بروفنسال .

وتوالى بعد ذلك نشر طائفة كبيرة من تلك الذخائر بلغت الآن ٥٤ كتاباً : منها ما هو فى أكثر من عشرة مجلدات . ومنها ما أعيد طبعه أكثر من خمس مرات .

ولا تزال تلك المجموعة فى تزايد ونجاح مطرد ، نرجو له المضى قدماً فى نشاطه واتساعه .

* * *

إن الحديث عن التراث وإحيائه حديث طويل ، ولكن ما قصد منها بهذا الحديث أولاً وأخيراً هو استحثاث العزائم لمواصلة السير فى هذا الطريق النبيل وفاءً لماضينا ، ودعماً لمستقبلنا الثقافى المرتقب .

الفهرس

الكتاب القادم :

العودة إلى الإيمان   أحمد حسن الباقورى

رقم الإيداع	١٩٧٨/٢٥٣١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٢٢٢ – ٨

١٢١/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



يتناول التراث العربى كل ما كتب باللغة العربية معبرا عن روحها وتياراتها وآدابها المختلفة .

وهذا بحث فى تاريخ التراث يلقى الأضواء على قيمته وأصالته وعبقرية التأليف العربى . . كما يبرز جهود الذين أسهموا فى إحياء التراث العر
مستعرضا ما بذله المستشرقون
حتى أصبح التراث علامة
العربية . . والوجود العربى